

الخزانات الخاصة مصدرا لتاريخ تطوان: الخزانة الداودية نموذجا

ذة: حسناء داود
جمعية تطاون أسمير

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من السنن الحميدة التي سنتها مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي من شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، كونها تهيء الأسباب لكي يتم البحث والتنقيب والتعريف بجملة المظان التي تمكن الباحثين والدارسين من الوقوف على ما خفي من المعلومات المساعدة لهم على توثيق أبحاثهم وتأييد مواضيعهم بجملة من الشهادات والوثائق التي تعتبر بمثابة الدعم الأساسي لكل بحث قيم أو دراسة أكاديمية مكتملة.

حقيقة، إن مجال البحث في عصرنا هذا قد خطا خطوات ملموسة إلى الأمام، وذلك بتوفير ما من شأنه أن ييسر سبله بواسطة ما جد من وسائل وتقنيات متطورة تضع العديد من المعلومات بين يدي الباحث في رمشة عين، وذلك بمجرد الضغط على زر يصله بشبكة إعلامية تفتح له آلاف الصفحات المشتملة على ما يروي غليله في موضع بحثه؛ إلا أن ذلك لا ينفي أن هذا المجال ما زال مفتقرا إلى الغوص في أعماق المجهل التي تزخر بالكم الهائل من المعلومات والمستندات الشاهدة على عصرها بشخصياته وبوقائعه وظروفه وحيثياته وخصائصه، مما لا يفي بحقه إلا مثل هذه المصادر والمراجع الفريدة والنادرة، التي تركز في زوايا البيوت وبين جدران المخازن وفي ثنايا الخزانات العتيقة، التي تتضمن كنوز التاريخ ونفائس الذخائر.

على هذا الأساس، أردت أن أؤكد في هذه المداخلة على ضرورة العناية بما تحتويه الخزانات الخاصة في بلادنا، لأن هذه الخزانات تمثل في الحقيقة منجما ثمينيا يضم المادة الخام التي تنتظر اليد الأمانة، لكي تستخرجها وتستغلها في إطار تبليغ المعلومات مؤيدة بالحجج والدلائل؛ وليست هذه اليد سوى يد الباحث المتقصي للحقائق الذي يقوم بصهر هذه المعلومات وصقلها وصياغتها وتقديمها في قالب صادق مؤيد وموثق، يشفي نهم القراء والدارسين ويقنعهم في الوقت ذاته.

ويوجد في تطوان حالياً من الخزانات أو المكتبات الخاصة المعروفة عدد لا بأس به، لكون هذه المدينة تعتبر والله الحمد من المدن المغربية المتميزة، والمعروفة بعناية أبنائها بكل ما هو رمز للحضارة والأصالة والثقافة والآداب والعلوم والفنون.

إلا أن المؤسف هو أن عدداً آخر من هذه المكتبات ما زال مجهولاً مخفياً بعيداً عن الأنظار وعن الأيدي، وهو في الوقت ذاته معرض لكل الأخطار التي تتهدد وجوده، علماً بأن ظروف حفظه حالياً هي ظروف غير ملائمة بالإضافة إلى كون أصحاب هذه المكتبات، وكذا المسؤولين عن المؤسسات العمومية المختصة في هذا المجال، يجهلون أو يتجاهلون هذه الأخطار، وبالتالي فإنهم لا يعملون من أجل تلافيها أو التخفيف من حدتها على الأقل.

وإذا كانت طبيعة المكتبات أو الخزانات الخاصة التي أجلي عنها الستار لحد الآن في تطوان، تكاد تتحد فيما يرجع لطريقة تكوينها وجمع مادتها من طرف أصحابها، الذين كان جلهم من فقهاء أو علماء أو وجهاء وأعيان هذه المدينة، فإنها تختلف نسبياً فيما يرجع إلى حجمها وإلى قيمة محتوياتها، وكذا إلى دورها كمؤسسات بإمكانها أن تقدم خدمات لصالح البحث والثقافة.

فأما من حيث حجمها ومضمونها، فهناك الخزانات الكبيرة التي تشتمل على الآلاف من الكتب القيمة، بالإضافة إلى العديد من المخطوطات، وكذا الملفات والمجموعات الصحفية والصور والوثائق وغيرها، وهناك المكتبات الصغيرة التي تضم قدراً بسيطاً من الكتب المتنوعة، التي غالباً ما يكون جلها في موضع معين له علاقة باهتمام أو تخصص صاحبها.

وأما بالنسبة للخدمات التي تقدمها هذه الخزانات أو المكتبات، فمما يلاحظ أنه إذا استثنينا منها ما تم إهداؤه إلى إحدى الهيئات أو المؤسسات العمومية، كمكتبة العلامة سيدي التهامي الوزاني أو الفقيه سيدي محمد أفيال أو الأستاذ محمد الخطيب على سبيل المثال، فإنه لم يفتح في وجه العموم من الخزانات الخاصة بتطوان سوى خزانتي اثنتين: أولاهما هي الخزانة الداودية التي أسهر شخصياً على حفظها وأقوم بصيانتها وتنظيمها وفهرستها، وكذا تنمية رصيدها منذ سنة 1986، وثانيتها هي مكتبة الأستاذ عبد الخالق الطريس التي تسهر عليها وتقوم بشؤونها جمعية قداماء المعهد الحر.

وأعود إلى موضوع كشف النقاب عن المكتبات والخزانات الخاصة واكتشافها بين جدران البيوت العتيقة في تطوان، لأثبت أن المجهود الذي قام به الدكتور الباحث المقتر سيدي امحمد بن عبود في هذا الميدان، يعتبر مجهوداً قيماً يشكر عليه، إذ أنه قد هياً مشروعاً ممتازاً لفهرسة هذه المكتبات، فأعد فريقاً من الطلبة المهتمين بالموضوع، وأشرف على عملية الفهرسة بواسطة

الحاسوب لما تحتويه أكثر من عشرين مكتبة، فاق عدد ما تمت فهرسته بها لحد الآن نحو 50.000 عنوان، ولعله ما زال مستمرا في هذا المشروع، قاصدا أن يدرج كل ذلك في برنامج خاص يدخل في إطار شبكة معلوماتية تضم كل هذه الفهارس وتربط تلك المكتبات فيما بينها والغرض من ذلك كله هو أن تصبح الخدمات المكتبية بتطوان متكاملة وسهلة وسريعة، خدمة للباحثين.

ولقد تبين من خلال العملية المذكورة، أن معظم هذه المكتبات يضم بالفعل مادة تراثية ذات أهمية كبيرة، يمكن أن تستغل في توثيق الأبحاث والدراسات الأكاديمية، لأنها قد تكشف الحجاب عن العديد من المعلومات الخاصة بمختلف المكونات والعوامل التاريخية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الحضارية أو الثقافية أو الفنية، أو غيرها مما يتعلق بمجال البحث في حياة مدينة تطوان أو غيرها من المدن المغربية. وتتمثل هذه المادة في مختلف الكتب والمخطوطات والملفات والوثائق والمستندات والدفاتر والأوراق والصور التي من شأنها أن تنير الطريق للباحث فيما هو بصدد البحث عنه في أي مجال.

ومما يجدر التأكيد عليه، هو أن مثل هذه المواد لا يمكن العثور عليها إلا في هذه الخزانات، إذ أن المكتبات العمومية والتجارية إنما تقتصر على عرض أو بيع ما جد إصداره من الكتب الحديثة، بل إنك قد تبحث فيها عن كتاب صدر منذ بضعة عقود فلا تجد له أثرا، بينما تجد في الخزانات الخاصة ما صدر من أمهات الكتب منذ عشرات السنين. بالإضافة إلى كون مؤسسي هذه الخزانات غالبا ما كانوا يحفظون فيها كل ما يتعلق باهتمامهم أو بمجال عملهم سياسيا أو دينيا أو تاريخيا أو أدبيا أو لغويا... إلخ. أما إذا كانت الخزانة لأحد العلماء الباحثين، فإن أهمية خزانته تزداد قيمة، وذلك بما تحتويه من مؤلفاته الخاصة، وكذا منسوخاته ووثائقه التي كان يعتمد عليها في مؤلفاته، بالإضافة إلى ما كان يهتم به من مستندات أو صحافة أو صور أو غيرها من الملفات المختلفة.

وبصفتي مسؤولة عن الخزانة الداودية التي يمكن اعتبارها من أهم الخزانات الخاصة بالمغرب، فقد ارتأيت أن أطلع حضراتكم على بعض الخصائص التي تتميز بها هذه الخزانة، وذلك لتقريب محتوياتها على من لم تتح له بعد فرصة زيارتها، وكذا لتوضيح بعض الجوانب التي تميزها كمصدر توثيقي ذي علاقة وطيدة بموضوع هذه الندوة التي نحن بصدها اليوم.

وعندما أقول إنني سأعرف بخصائص هذه الخزانة، فإنني أقصد التركيز على ما تتميز به من كونها تقدم للوافدين عليها مادة توثيقية ذات قيمة عالية، زيادة على كونها من الطرائق ما يسترعي انتباه زوارها من كبار الأساتذة والباحثين، ممن يسجلون ذلك في دفترها الذهبي، دائما عن تقديرهم وإعجابهم بخدماتها وبقيمتها وبمحتوياتها كما وكيفا.

فالخزانة الداودية، بالرغم من عدم موافقة بنائها لما هو مطلوب في المبنى الخاص باحتواء مكتبة تستقبل الزوار - لكونها أصلا عبارة عن مكتبة خصوصية وليست مكتبة عامة -، إلا أنني قد نظمتها - بتوفيق من الله - على أساس تخصيص قاعاتها السفلى لهذا الغرض، وهذه القاعة هي التي تحتوي الكتب المطبوعة، ويبلغ عدد هذه الكتب حسب آخر إحصاء 11.397، جلها باللغة العربية (8.779 كتاب)، والباقي منها باللغة الإسبانية (1.032 كتاب)، واللغة الإنجليزية (807 كتاب)، واللغة الفرنسية (782 كتاب)، بالإضافة إلى بضع عشرات من الكتب بمختلف اللغات كالإيطالية والألمانية والعبرية والتركية والفارسية ومختلف اللغات الآسيوية.

ولعل الطريف في الجناح المذكور هو أنه يضم كتباً في مختلف العلوم والمواد، فمن كتب في العلوم الدينية بجميع فروعها وموضوعاتها، إلى كتب في التاريخ والجغرافية واللغة والأدب والفلسفة والسياسة والقانون والاقتصاد والطبيعة والرياضيات والهندسة والطب وعلم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق والتربية والفنون والرياضة ومختلف أنواع العلوم والمعارف. مع الإشارة إلى أن من بين هذه الكتب مجموعة قيمة من الكتب المطبوعة طباعة حجرية بفاس أو بالقاهرة أو بالهند، وهي مما يعتبر الآن في حكم النادر. أضف إلى ذلك ما يضمه هذا القسم من الكتب التي تحمل توقيعات وإهداءات أصحابها من مشاهير الكتاب والأدباء والباحثين في مختلف أقطار العالم العربي والإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين، ممن كانت تجمع بينهم وبين مؤسس هذه الخزانة صداقة أو لقاءات في ظروف علمية أو ثقافية.

أما القسم الأجنبي بالخزانة فمن طرائفه مجموعة الكتب الصادرة عن مختلف الهيئات والمؤسسات الثقافية التي كانت تابعة للإقامة العامة الإسبانية بمنطقة شمال المغرب إبان فترة الحماية (1913-1956)، وتعرض جل هذه الكتب لمختلف الجوانب المتعلقة بالناحية التاريخية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والأدبية في هذه المنطقة وغيرها. إلى جانب مجموعة مهمة جداً من الكتب المختلفة المواضيع باللغة الفرنسية والإنجليزية.

وننتقل إلى جناح المخطوطات والنوادر والصور، لنذكر أن هذا القسم يضم بالإضافة إلى الأرشيف الشخصي الخاص بمؤسس الخزانة الأستاذ محمد داود رحمه الله، بما فيه من مؤلفات وملفات ومراسلات ومذكرات ودفاتر وأوراق شخصية، فإنه يضم كذلك المئات من المخطوطات الطريفة في مختلف العلوم والفنون، ومن بينها تأليف لعلماء تطوانيين مرموقين، كالعلامة سيدي الحاج علي بركة، وسيدي أحمد الرهوني وسيدي محمد المرير وسيدي التهامي الوزاني وغيرهم، إلى جانب العديد من الطرائف والنوادر، كالمخطوط الأصلي

لكناش الحايك في أشعار وأزجال الآلة الأندلسية الشيقة، ويحمل تاريخ 1202 هـ / 1788م، والمصحف الغرناطي المذهب المكتوب على رق الغزال، والذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، زيادة على مختلف التصنيف الأصلية أو المنسوخة التي خضع جزء كبير منها للتحقيق أو الدراسة من طرف الطلبة الجامعيين الذين يقصدون الخزانة من مختلف الأنحاء للاستفادة مما تحتويه في هذا المجال.

ونصل إلى بيت القصيد في الموضوع، وهو قسم الوثائق بهذه الخزانة، ويضم هذا القسم بين جنباته رصيذا ضخما حاولت شخصا أن أضع له ترتيبا خاصا، وذلك حسب نوعية المادة التي يتضمنها. فلقد لاحظت أن الوثائق الموجودة بهذه الخزانة يمكن تقسيمها إلى نوعين:

*** الوثائق التاريخية:** ويدخل ضمنها كل الوثائق المخزنية الرسمية، كالرسائل والظواهر والأوامر السلطانية والوزيرية، وكذا الوثائق الصادرة عن ذوي المناصب العليا في الدولة خلال عدة قرون كنواب السلطان والأمناء والسفراء والعمال والقضاة والمحتسبين ونواب بيت المال ... إلخ، إلى جانب الوثائق الخاصة ببعض الشخصيات المرموقة التي كان لها دور فعال في الساحة السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو غيرها. ويضم هذا الصنف حاليا نحو 1766 وثيقة مفهرسة.

*** والوثائق العدلية:** ويضم هذا الصنف الوثائق المتعلقة بالشهادات العدلية الخاصة بالمعاملات بين الناس، ومنها شهادات الزواج والطلاق والبيع والشراء والعقود والهبات والوصايا والتركات والقروض، شهادات التوكيل والخبرة بالوقوف على الممتلكات من عقار أو عروض أو غيرها ... إلخ، ويبلغ عدد الوثائق التي تمت فهرستها من هذا الصنف لحد الآن 1800 وثيقة، يرجع تاريخ أقدمها إلى أواخر القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي.

ومن الجدير بالذكر أن الوثائق المذكورة كانت هي الأساس الذي اعتمده الأستاذ محمد داود رحمه الله في توثيق أبحاثه المتعلقة بتاريخ مدينة تطوان، وكذا بأسرها وبحياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغوية والأدبية والفنية.

وما دنا بصدد الحديث عن التوثيق، فلا يفوتنا أن نشير إلى أهمية الصورة ودورها في الحفاظ على حيوية الأحداث التاريخية والمناسبات المختلفة، وتخليد رسوم الشخصيات ومميزات الأماكن وتغييراتها حسب الزمان، وبذلك كان لقسم الصور في الخزانة الداودية شأن مميز، حيث كان الأستاذ محمد داود من هواة جمعها، بل إنه كان من أعضاء جمعية كانت تحمل اسم "جمعية هواة جمع الصور التاريخية"، وقد ساهمت بفضل الله في إغناء الرصيد المحفوظ بهذا

القسم، حتى بلغ عدد الصور التي تمكنت من جمعها وترتيبها وتنظيمها حتى الآن ما يقرب من 15.000 صورة، مرتبة حسب مواضيعها. ومن أهم ما تشتمل عليه الخزانة الداودية مما يعتبر من الطرائف أيضا، قسم الصحافة الذي يضم مجموعات الصحف العربية التي صدرت بمختلف بقاع الأرض خلال ما يقرب من قرن من الزمان. ومن الجدير بالذكر أن محتويات هذا القسم تعتبر من الأهمية بمكان، - وخاصة الصحافة التي صدرت بتطوان في النصف الأول من القرن العشرين - لأنها تشتمل على نماذج فريدة يقل نظيرها ولو في المؤسسات الرسمية الكبرى، وهذا بشهادة الباحثين والمختصين في الميدان.

هذا باختصار وبايجاز ما يمكن أن أقوله بالنسبة لمحتويات الخزانة الداودية، مما جعلنا جله رهن إشارة الباحثين والدارسين، خدمة للعلم وللثقافة، وتلبية لنداء الضمير في تحقيق رضا الله بتكريس العلم للمنفعة العامة، وجعله صدقة جارية عملا بالحديث النبوي الشريف. علما بأن هناك الكثير من الخزانات التي يمكن استغلالها للهدف لنفسه.

وقبل أن أختتم مداخلتى هذه، أود أن أوجه ندائين اثنين أرجو أن يكون لهما صدق مسموع لدى من يهمهم الأمر:

* النداء الأول: موجه إلى كافة الأطر العاملة والمسؤولة في مجال توجيه الطلبة الباحثين والدارسين، الذين يقصدون مختلف المؤسسات الثقافية من أجل الاستفادة من محتوياتها، طالبة منهم وبالحاح، أن يعملوا على تربية حاسة الذوق الأدبي عند الطالب، وأن يذكوا في نفسه روح الاحترام إزاء الأثر القيم الذي بين يديه، وأن يعلموه طرق التعامل مع المادة قبل تكليفه بالعمل عليها، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمخطوط له قيمته التي لا تقدر بمال، علما بأن الأساس في مسألة الرجوع إلى مثل هذه المصادر إنما هو الشعور بأهمية التوثيق وبأن التعامل من خلال الوثائق إنما هو تعامل مع التاريخ نفسه، وأن التعايش مع تلك التحف الفريدة والنادرة التي تستحق كل العناية والرعاية والاحترام، يوجب عليه أن يلمسها بنوع من الحيطة والحذر، وأن لا يسمح لنفسه بالكتابة على صفحاتها أو ترقيمها أو تسطير كلماتها أو وضع أية علامة زائدة عليها، فضلا عن تشويهها بقطعها أو تفريق أوراقها أو خلطها أو تعريضها للضياع.

أقول هذا الكلام، لأنني واجهت الكثير من المشاكل والمواقف المحرجة مع بعض من لا يقدر التراث حق قدره، فيكون سببا في حرمان نفسه وغيره من الانتفاع به.

* النداء الثاني: الذي أريد توجيهه اغتناما لهذه المناسبة، هو عبارة عن توصية أوجهها إلى أصحاب المسؤولية الثقافية بهذه البلاد، وكذا إلى مختلف

المنظمات والهيئات والمؤسسات ذات الإمكانات وذات الاهتمام بالشأن الثقافي داخل بلادنا أو خارجها، راجية تسليط الضوء على الخزانات الخاصة بهذه الربوع، وذلك:

أولاً: باستكشاف ما هو مجهول من هذه الخزانات، وإخراجه من القبور المغلقة عليه، ثم احتضانه وتيسير سبل القيام بشؤونه على يد من يملكون زمامه حالياً، أو من يستلم منهم ذلك من المسؤولين، على أساس اتفاقية توقع بين الجهة المسؤولة وبين أصحاب هذه الثروات الثقافية النفيسة وعلى أساس أن تحفظه وتقوم بشؤونه كما ينبغي.

ثانياً: بضرورة العناية بما هو موجود منها ومعروف في الساحة حالياً، ومده بوسائل الدعم المادي والمعنوي، وتجهيزه بما يناسب تقدم العصر ومتطلبات البحث، وذلك بتوفير المقر المناسب له، مع تزويده بالأجهزة التقنية والمعدات الحديثة والآليات الوقائية والمواد المناسبة، وكذا كل الوسائل الكفيلة بترميم محتوياته والحفاظ عليها وصيانتها من كل ما يمكن أن يعرضها للتلف أو الضياع، مع وضعها بين أيدي الباحثين في إطار يضمن سلامتها.

وأقول هذا الكلام أيضاً، لأنني عشت وأعيش المشاكل العديدة والصعوبات المختلفة التي تعترض سبيلي في مسؤولية الصيانة والحفظ والقيام بمؤسسة ثقافية لا حول لها ولا قوة، ولا دعم ولا سند، ولا ميزانية ولا أجهزة، ولا أطر ولا موظفين، إلا ما يسره الله بفضل من مجهود شخصي ضئيل، ومن إمكانات محدودة بسيطة، ومما هو أهم من ذلك كله، وهو نية صادقة وعطف خاص وعزم أكيد وإصرار ملح على مواصلة الجهود وعلى المضي إلى الأمام، رغم كل العراقيل.

وأخيراً، أقول هذا الكلام لأنني أعلم علم اليقين، أنه إذا لم يتدارك أمر العناية بالخزانات الخاصة في الوقت المناسب، فإن العاقبة ستكون وخيمة دون شك، وسنكون حينئذ نحن المسؤولين عن ضياع ما بين أيدينا من رصيد توثيقي تاريخي ثقافي قيم، من شأنه أن يضيف الكثير إلى مقوماتنا كأمة تمتاز بثقافتها وبمؤسساتها العلمية العريقة، وتعتز برصيدها وبثروتها الحضارية الأصيلة.